سلسلة المقالات
الفقهية الأصولية
(٦٧)

ظُهُورُ الاصْطِلَامِ،
وَذَهَابُ الذِّكْرِ والْفِكْرِ الهُمَامِ

وَقَّعَه
الدكتور عيد أبو السعود الكيال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيَّ بعده محمد بن عبد اللَّه النَّبِيّ الأُمِّيُّ الذي علَّم وفهَّم، وبيَّن وألْهَمَ، وخصَّص وعمَّم، وفقَّه في الدِّين من أراد اللَّه به خيرًا وتمَّم، ﷺ، أمَّا بعد:

فهذه مقالة تَدَرَّجْتُ فيها بالبيان والتفهيم لمرادها علىٰ منازل تكتمل بها الفِكْرة:

المنزلة الأولى: تصوُّر الاصطلام:

قال الإمام اللغوي محمد بن أبي بكر عبد القادر الرَّازي في كتابه «مُخْتَارُ الصَّحَّاح» مادة (صلم) (ص: ٣٦٨):

«ص ل م- الاصطلام: الاستئصال». اهـ. ولم يَرِدْ تفصيلًا.

وقال الفيروزآبادي في: «القاموس المحيط» (٤/ ١٣٧- ١٣٨) مادّة (الصّلم):

«الصَّلْمُ: القطع، أو قطع الأذن والأنف من أصْله، كالتصليم، والفعل: كضَرَبَ، ورجل أصْلم ومُصَلّم الأذنين، كأنّه مقطوعهما خِلْقةً، والصّلامة: الفِرْقةُ من النَّاس، والصّليمُ: الأمر الشديد الدَّاهية، واصطلمه: استأصله، ووَقْعَةً صَيْلَمَةَ: مُسْتأصلة». اهـ.

وقال ابن الأثير في: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣/ ٤٥- ٤٦):

«في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «يكون النَّاس صُلاماتٍ يضْرِب بعضهم رقاب بعضٍ»، الصلامات: الفِرَق والطوائف، واحدتها صلامة.

وفي حديث ابن الزّبَير لمَّا قُتل أخوه مُصْعب: «أسْلمه النَّعام المُصَلَّمُ الآذَان أهل العراق»، يُقال للنَّعام: مُصَلَّم؛ لأنَّها لا آذان لها ظاهرة، والصَّلْم: القطع المُستأصل، فإذا أُطْلق علىٰ النَّاس فإنَّما يراد به الذليل المُهَان، ومنه قوله:

فإنْ أنتم لم تثأرُوا واتَّدَيْتُمُ فَمَشّوا بآذان النَّعام المُصلَّم

وفي حديث ابن عمر: «فتكون الصَّيلَمُ بيْني وبينه»؛ أي: القطيعة المُنْكرة، والصيلم: الداهية، والياء زائدة.

ومن حديث ابن عمر: «اخرجوا يا أهل مكة قبل الصَّيْلَم؛ كأنِّي به أُفَيْحِجَ أُفَيْدِعَ يهدم الكعبة». اهـ.

قلت: الحديث الأخير رواه البخاري في «صحيحه» **(١٥٩٥)** بلفظ مقارب، باب هدم الكعبة.

• هذه هي المنزلة الأولىٰ في تصوّر المعاني الكلية للفظة الاصطلام ومعانيها؛ حتىٰ يُدْرك المعنىٰ الكلِّي لفهم بنية المقالة، من خلال معرفة بنية الألفاظ لاستيعاب المعنىٰ، والقاعدة الكلية: «**العبرة في العقود بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني**»، والقاعدة المشتقة منها: «**وما الألفاظ إلَّا قوالب للمعاني**».

فيتحصّل من المراد: حدوث الأمر الشديد الداهية الذي يُفْسد العباد والبلاد سواء في الدين أو الدنيا، ويُسْتأصل الخبر بأنواعه ودرجاته؛ ممَّا يُظهر البلبلة واضطراب الشؤون.

المنزلة الثانية: العلم بين الرِّفعة والاصطلام:

روىٰ مسلم في «صحيحه» (٨١٧) عن عامر بن واثلة؛ أنَّ نافع بن عبد الحارث لَقِيَ عُمَر بَعُسْفانَ، وكان عمرُ يستعمله علىٰ مكة، فقالوا من استعملت علىٰ أهل الوادي؟ فقال ابنَ أَبْزَىٰ؟ قال: ومَنِ ابنُ أَبْزَىٰ؟ قال: مَوْلىٰ من موالينا، قال:

فاستخلفت عليهم مولًىٰ؟ قال: إنّه قارئٌ لكتاب اللَّه ﷻ، وإنّه عالم بالفرائض، قال عمر: أمَّا إنَّ نبيّكم ﷺ قد قال: «**إنَّ اللَّه يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع آخرين**».

قلت: وهذا الحديث العمدة في الاصطلام سلبًا وإيجابًا، ورفعة للفلاح وسفوله.

وروىٰ البخاري في «صحيحه» (١٠٠) ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول:

«**إنَّ اللَّه لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتىٰ إذا لم يُبْقِ عالمًا اتخذ النَّاس رؤوسًا جهَّالًا فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**».

قلت: هذا هو المؤشِّر علىٰ ثبات العلم وذهابه وتأثيره علىٰ صلاح الدين وفساده.

وروىٰ الإمام ابن بطة العكبريّ في: «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفِرق المذمومة» المسمَّىٰ: «الإبانة الكبرىٰ» **(١٦٢- ١٦٣)** عن الإمام الزهري قال:

«كان من مَضَىٰ مِنْ علمائنا يقولون: الاعتصام بالسُّنَّة نجاة، والعلم يقبض سريعًا، فنعش العلم ثبات الدنيا والدين، وذهاب العلم ذهاب ذلك كلّه»، وفي رواية: «فنعش العلم ثبات الدين، وذهاب ذلك كله ذهاب العلماء».

وروىٰ الترمذيّ في «سننه» (٢٦٥٣) باب ما جاء في ذهاب العلم، وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه في «سننه» (٤٠٤٨) باب ذهاب القرآن والعلم، وأحمد في «المسند» (١٧٨٤٤)، (٢٣٨٧٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٨، ٣٣٩) وصححه ووافقه الذهبيّ من حديث أبي الدرداء وعوف بن مالك، قال: كُنَّا مع

رسول اللَّه ﷺ فشخص ببصره إلىٰ السماء -وفي رواية- فنظر في السماء ثُمَّ قال: «**هذا أوان العلم أن يُرفع**»، وفي رواية: «**هذا أوان يختلس العلم من النَّاس حتىٰ لا يقدروا منه علىٰ شيْء**»، وفي رواية: «**أوان ذهاب العلم**»، فقال زياد بن لبيد الأنصَاريّ: كيف يختلس منَّا وقد قرأنا القرْآن؟! فواللَّه لنقرَأنّه ولنُقْرِأنَّه نساءنا وأبناءنا، وفي -رواية- «**ويقْرِئُهُ أبناؤنا أبناءهم إلىٰ يوم القيامة؟!**»، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ثكلتك أمك يا زياد! إن كنت لأعدُّك من فقهاء المدينة**»، وفي رواية: «**إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة**»، وفي رواية: «**ما كنت أحسبك إلَّا من أعقل أهل المدينة، أليس اليهود والنصارىٰ فيهم التوراة والإنجيل ثُمَّ لم ينتفعوا منه بشيْء؟!**»، وفي رواية: «**لا يعملون بشيء ممَّا فيهما**»، وفي رواية: «**فماذا يغني عنهم**»، وفي رواية: «**أو ليس اليهود والنصارىٰ يقرءون التوراة والإنجيل ولا يعملون بشيْء ممَّا فيهما**».

قال الإمام الفقيه الأصولي أبو المظفر بن السمعاني في كتابه: «قواطع الأدلة في الأصول» (١/ ٢٠- ٢١) باب القول في مقدّمات أصول الفقه:

«وقيل: إنَّ الفقه هو استنباط حكم المُشْكل من الواضح، يُقال: فلان يتفقَّه إذا استنبط علم الأحكام وتتبّعها من طريق الاستدلال؛ قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]؛ والدليل علىٰ أنَّ التفقّه أصل الاستنباط والاستدلال علىٰ الشيء بغيره: حديث زياد بن لبيد الأنصاري [فذكره ثُمَّ قال:] فدلَّ قولُه: «**إن كنت لأعدّك من فقهاء المدينة**» علىٰ أنّه لمّا لمْ يستنبط علم ما أشكل عليه من ذهاب العلم، مع بقاء الكتاب بما شاهده من زوال العلم عن اليهود والنصارىٰ، مع بقاء التوراة والإنجيل عندهم خرج عن الفقه، فهذا يدلُّ علىٰ ما ذكرناه من: أنَّ الفقه هو استنباط حكم المُشْكل من الواضح، وعلىٰ هذا قوله ﷺ: «**ربّ حامل فقه غير فقيه**»؛ أي: غير مستنبط، ومعناه: أنّه يحمل الرواية من غير أن يكون له استدلال

ولا استنباط فيها». اهـ.

• **روىٰ الترمذي في «سننه» (٢٦٥٦- ٢٦٥٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو داود في «سننه» (٣٦٦٠) وابن ماجه (٢٣٠، ٤١٠٥)، وأحمد في «المسند» (١٣٢٨٣) والحاكم في «المستدرك» (٢٩٤- ٢٩٨) وصححه ووافقه الذهبي علىٰ شرطهما**، من حديث ابن مسعود عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**نضر اللَّه امرأً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلّغها**» -وفي رواية- «**فوعاها ثُمَّ أدَّاها إلىٰ من لم سمعها**» -وفي رواية- «**فحملها، فربّ حامل فقه غير فقيه، وربّ حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه**» -وفي رواية- «**فرُبَّ مُبَلَّغٍ أوْعَىٰ من سامع**».

قلت: فهذه جملة من الأحاديث والأدلة تبرهن علىٰ صفة ذهاب العلم وثباته بين السلب والإيجاب؛ تعليلًا وتسبيبًا وتفهيمًا «**ومن يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين**» قاله رسول اللَّه ﷺ كما في البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧، ١٠٣٨).

ومن هنا تدرك فهم لفظة الاصطلام لغةً وشرعًا، فأصل المسألة بين العلم والفهم والوعي والفقه والإدراك، وبين الجهل بعلوم الشريعة والغفلة عنها، وعدم النصب والتعب للوصول للحقيقة العلمية الشرعية، التي بها الخلاص والمناص والنَّجاة.

وعلىٰ ضوء ذلك تعيَّن لزامًا وَصْل الاصطلام وتأثيره علىٰ الدين والدعوة إلىٰ اللَّه علىٰ بصيرة، أو علىٰ ضلال وفساد، وذلك من خلال هذه الأحاديث العظيمة كقواعد كلية في بيان ما يؤول إليه أمر البلاغ عن اللَّه ورسوله، وبيان وظهور أسباب القوة والضعف، والعلم والجهل، والسُّنَّة والابتداع؛ ووجهه: أنَّ عند نُصُوب التعلم والتعليم تتسع الهُوّة السحيقة بين العصر الأول علىٰ مثل ما كان عليه النَّبِيّ ﷺ وأصحابه الأئمة الأعلام، وبين عصر المتأخرين في يوم النَّاس هذا، حتىٰ أصبح الاصطلام علىٰ أشدّه وللَّه الأمر من قبل ومن بعد، ولا حول ولا قوة إلَّا باللَّه.

المنزلة الثالثة: ذهاب الذِّكْر:

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

قال القرطبيّ في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٧٩):

«﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤]، والبيّنات: الحجج والبراهين، والزُّبُر: الكتبُ، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك، فالرسول مُبيّن عن اللَّه ﷻ مراده مِمَّا أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة وغير ذلك ممَّا لم يفصّله، قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيتعظون». اهـ.

قلت: وعليه، فالذكر كل الدين تعلّمًا وتعليمًا وتبليغًا، وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، ومعرفة الأوامر والنواهي والحدود وشعائر الإسلام، والحلال والحرام، وما يجوز ومالا يجوز، وفهم مقاصد الشريعة وإدراكها وتصوّرها، ثُمَّ العمل بها علىٰ اعتقاد صحيح خالص للَّه، وعلىٰ هذا يُفهم قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٧- ٢٩]، فآيات سورة الرعد يفسّر بعضها بعضًا، وهذا هو الذكر الشرعي الكلي بإجماع الأمة سلفًا وخلفًا: «الإيمان قول وعمل ونية واتباع السُّنَّة».

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟! [الأنبياء: ١٠].

قال ابن كثير في: «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ٢١٢)، (٧/ ١٤٧):

«يقول تعالىٰ مُنبِّهًا علىٰ شرف القرآن ومحرّضًا لهم علىٰ معرفة قدره: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ قال ابن عباس: شرفكم، وقال مجاهد:

حديثكم، وقال الحسن البصري: دينكم كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]؛ أي: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، قوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾؛ أي: عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له؟». اهـ.

وقال السعدي في: «تفسيره» (ص: ٥١٩- ٥٢٠):

«لقد أنزلنا إليكم أيها المرسل إليهم -محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطّلب- كتابًا جليلًا وقرآنًا مبينًا ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛ أي: شرفكم وفخركم وارتفاعكم، إنْ تذكرتم به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها، وامتثلتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النَّواهي، ارتفع قدركم، وعظم أمركم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟! ما ينفعكم وما يضرّكم؟ كيف لا ترضون ولا تعملون علىٰ ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة؟! فلو كان لكم عقل لسلكتم هذا السَّبيل، فلمَّا لم تسلكوه، وسلكتم غيره من الطرق التي فيها ضَعَتُكُمْ وخِسَّتكم في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما؟! عُلم أنه ليس لكم معقول صحيح ولا رأي رجيح.

وهذه الآية مصداقها ما وقع؛ فإنَّ المؤمنين بالرسول الذين تذكَّروا بالقرآن من الصحابة فمن بعدهم؛ حصل لهم من الرّفعة والعلو الباهر والصيت العظيم والشرف علىٰ الملوك، ما هو أمر معلوم لكل أحد، كما أنَّه معلوم ما حصل لمن لم يرفع بهذا القرآن رأسًا، ولم يهتد به ويتزكَّ به، من المقت والضّيعة والتدسية [كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠].]، والشقاوة، فلا سبيل إلىٰ سعادة الدنيا والآخرة إلَّا بالتذكر بهذا الكتاب». اهـ.

قلت: وهذه التفسيرات تبيّن وتؤكد وتقرر الحديث الذي وردته آنفًا: «**إنَّ اللَّه يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع آخرين**» رواه مسلم (٨١٧).

وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

[الزمر: ٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وهذه الآية من سورة المجادلة فسّرها ابن كثير بالحديث السابق عند مسلم في «صحيحه» آنفًا.

وقال القرطبيّ في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢١٨- ٢١٩):

«قوله تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾؛ أي: في الثواب في الآخرة، وفي الكرامة في الدّنيا، فيرفع المؤمن علىٰ من ليس بمؤمن؛ والعالم علىٰ من ليس بعالم، وقال ابن مسعود: مدح اللَّه العلماء في هذه الآية، والمعنَىٰ: أنه يرفع اللَّه الذين أوتوا العلم علىٰ الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم.

قوله: ﴿دَرَجَٰتٍ﴾؛ أي: درجات في دينهم إذا فعلوا ما أُمروا به، وبيّن في هذه الآية أنَّ الرِّفعة عند اللَّه تعالىٰ بالعلم والإيمان، لا بالسبق إلىٰ صدور المجالس، وقال يحيىٰ عن مالك: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ الصحابة ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ يرفع اللَّه بها العالم والطالب للحق.

قلت [يعني القرطبيّ:]، والعموم -في الآية- أوقع في المسألة وأوْلىٰ بمعنىٰ الآية، فيرفع المؤمن بإيمانه أولًا، ثُمَّ بعلمه ثانيًا. . . .». اهـ ثُمَّ ذكر حديث مسلم السابق.

• فمع قلة العلم وذهابه ونقص العلماء الربَّانيين يتحقق الاستئصال لشرائع الدين وأركانه وأصوله، ويحدث الاصطلام وذهاب الذكر.

ويدلُّ عليه: ما رواه البخاريّ في «صحيحه» (٧٠٦٣) ومسلم (٢٦٧٢) قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنَّ بين يدي السَّاعة لأيامًا ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم ويكثر فيها الهرج، والهرج القتل**».

• فكانت الدعوة إلىٰ اللَّه علىٰ بصيرة بين التقوىٰ والفجور، والعلم والجهل،

والسُّنَّة والبدعة، والظهور والإخفاق، والتوفيق والخذلان، والقوة والضعف، والتمكين والتفكيك والافتراق، وذهاب الريح والمقدرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

المنزلة الرابعة: فساد الفِكْرِ:

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۗ﴾؟! [الروم: ٨]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

قال ابن فارس في: «مقاييس اللغة» (٤/ ٤٤٦):

«(فكر) الفاء والكاف والراء: تردد القلب في الشيْء، يُقال تفكَّر إذا ردَّد قلبه معتبرًا، ورجل فِكِّيرٌ: كثير الفِكْرِ». اهـ.

قلت: فهذا التردد في القلب إنَّما هما التدبّر والتفكر في كتاب اللَّه الذي فيه ذكركم.

وقال الرازي في: «مُختار الصَّحَّاح» (ص: ٥٠٩):

«التَّفكر: التأمّل، والاسم: الفِكْر، والفكرة، والمصدر: الفَكْرُ، وأَفْكَرَ في الشيْء، وفكَّر فيه بالتشديد وتفكَّر فيه بمعنًىٰ [واحد]». اهـ.

وقال الراغب الأصفهانيّ في: «المفردات في غريب القرآن» (ص: ٣٨٤):

«الفِكْرَةُ: قوةٌ مُطْرِفَةٌ للعلم إلىٰ المعلوم، والتّفكر: جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، قال بعض الأدباء: الفكر مقلوب الفَرْك، لكن يُستعمل الفِكْرُ في المعاني، وهو فَرْكُ الأمور وبحثها؛ طلبًا للوصول إلىٰ حقيقتها». اهـ.

قلت: وهذا الأخير جيد وقوي وحسن؛ لانطباقه علىٰ مسائل الدين في التحقيق والتقصّي والبحث المستمر للوصول إلىٰ مراد اللَّه من هذا الشريعة، وهو الأمر الذي يثمر التميّز والسَّبْق للخير.

ووجه ذلك: لو لم تتدبّر الأمة في مراد اللَّه من الأوامر والنَّواهي، والتفكر في الإلمام والفهم لمقاصد الشريعة، بحسن الوعي والإدراك وقوة التصوّر وصلابة الفقه المدعوم بقواعده الكلية وقواعده الأصولية، والعقدية، وتركت الأمة عنان أفكارها بالركون إلىٰ العقل المخالف لهذه الكليّات القائمة علىٰ كتاب اللَّه، وسنة نبيه ﷺ، وما عليه الصحابة ومن تبعهم من السلف الصالحين التابعين للرعيل الأول والقرن الأم والأصل، لفسد الفكر، وهلك الدِّين، ونقضت عراه وأركانه، وهدمت شعائره، وهذا إجماع النَّاس سلفًا وخلفًا، وعليه اتفق الأولون والآخرون.

فالفِكْر فكران: فِكْر أمر اللَّه به ورسوله وحثَّ عليه وجعله دعائم للوصول إلىٰ حقيقة الدين، هذا الفكر مَنْبَعُهُ النقل والآثار كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

• وفِكْرٌ مَبْنِيٌّ علىٰ الهوىٰ والابتداع والشهوات والملذَّات الدنيوية، ثُمَّ يجتهدوا في تَوْصيفه بصبغة شرعية مصطنعة؛ لا حظ لها من الاستدلال المنضبط علىٰ منظومة الاستنباط المستقيم علىٰ قواعد الشرعية وأركانها الكلية، ولا أثارة لها من العلم، إلَّا من باب تتبع المتشابه، وزلَّات العلماء الذين أخطأوا الحق في بعض المسائل، ولو علموا مازلَّوا فيه لرجعوا؛ لأنهم هم العلماء الأثبات الرَّبَّانيُّون

العاملون والمعلمون، فهذا فكر قائم علىٰ الخداع واتباع خطوات الشيطان، والتلبيس والتدليس، وخلط الحق بالباطل وكتمانه ونشر الفوضىٰ العلمية التي تسعىٰ إلىٰ حدوث الاصطلام وذهاب العلم ونقض عرىٰ الإسلام، فعليكم بحَمْل الدين المتين.

واللَّه من وراء القصد وهو يهدي السبيل، سبحانه الموفّق والمسدد إلىٰ سواء الصراط، وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد للَّه ربّ العالمين.

كتبه

الباحث الشرعيّ الدكتور عيد أبو السعود الكيَّال